أسباب القلق الدولي

الاستعمار : الحائل دون سلام العالم

لسعادة عبد الرحمن عزام باشا

إذا استطعنا أن نرجع بذاكرتنا إلى الماضي القريب ونتأمل حالة العالم عند ما كانت الحرب العالمية الثانية — بجميع أهوالها — تنزل الفناء بالشعوب وتنشر الدمار والخراب ، لرأينا أن العالم كان إذ ذاك مقسماً إلى ثلاث طوائف : اثنتان محاربتان وطائفة محايدة . غير أن الطائفة الأخيرة لم تفلت من خداع الفريقين الأولين وحيلهما .

وكانت كل من الدول المحاربة تكيل التهم على رأس الأخرى وتوجه اليها الاتهامات التي يصعب إثباتها ولا تجدي مناقشتها . وأكد كل من الفريقين انه كان مظلوماً وانه ضحية لعدوان الفريق الآخر ، وزعم انه كان يحارب الحرب الشريفة تأييداً للحضارة ونصرة للحق .

ولسنا نُعنى الآن بشرعية هذه المزاعم أو عدم شرعيتها ، بل علينا أن نبحثها على ضوء قيمتها ونرى هل تستند الى أساس صحيح أم لا .

وتتألف الطائفة الثالثة من الأمم التي انتهكت سلامة أراضيها وحقوقها عن عمد ، ومن الأمم التي هددت بمصير مماثل . بيد أن الأمم الأخيرة كانت يقظة تسلح أنفسها تسليحاً كاملاً ابتغاء تحاشي مثل هذه النكبات .

الأسباب الرئيسية

والواقع اننا اذا ألقينا نظرة عامة على اسباب الاضطراب بين الأمم في أثناء القرنين الأخيرين لرأينا أنها كانت تزداد خطراً وربما بلغت ذروتها في الحرب الأخيرة عندما اشتركت فيها القارات الخمس بأسرها .

وقد يُسأل : ما هي أسباب هذا الشرّ المفزع الدائم السوّ ، وما هي تلك الأهداف المعتلّة التي ظلت بغير تحقيق في خلال العصور والتي لم تحقق بعد ، والتي يحتمل أن يكون من المتعذر تحقيقها ؟

أهي الجشع بعد التوسع ، والمزاحمة الدنيئة للسيطرة على الشعوب الضعيفة ابتغاء تجريدها من ثروتها ومواردها ؟

أهي حرب الطبقات أي الصراع بين الذين يملكون والذين لا يملكون ؟

أهي المباهاة بالقومية أو بُغض الأجناس أو التخلّق بالأنانيّة المفرطة والطمع والتلهف على احتكار السلطة مع تجاهل حقوق الطبقات الأخرى والأمم الأخرى والأجناس الأخرى ؟

أم هي المروحة الطاغية للماديّة وانتهاء الترف مع ما يصحبها من عواقب لا انفصام لها عنها ؟ أم هي تكديس الثروة والاغراق المفرط في اللذات كهدف رئيسي للحياة وبهذا تزيد حدّة الخلافات بين الطبقات والأمم فتلجأ الواحدة إلى مخادعة الأخرى مع ما يترتب على هذا من صراع داخلي وصراع خارجي ؟

أم هي انكسار المعنويات تحت ثقل قوات الماديّة المتدافعة وبهذا تنقوض أسس الخُلُق ، وتتزعزع المعتقدات وتنصاب التقاليد النبيلة وتخبو النخوة وتتداعى عرى الإخاء وتنتهك العهود والاتفاقات ؟

قد تكون سبباً من تلك ، أو مجموعة من هاته العوامل ، غير أن النتيجة النهائية التي تتمخض عنها هي أن يكتب للخيانة والخداع الطيمنة ، وتحل الخشية وعدم الثقة محل الثقة ، ويصبح التأهب للحرب وإعلانها الفجائي سُنّة العصر .

التأثيرات المروعة

بيد أننا إذ نرجع ثانية إلى سبب — أو أسباب — هذه الحالة الخطيرة ، منقتصر — حرصاً على تحقيق الهدف المقصود بهذا السرد الموجز — على أول أسباب الاضطراب الدولي وأهمها ويمكن حصره في كلمة واحدة هي « الاستعمار » ، أي الاستعمار الحديث ، وهو المبدأ الذي يبتر بامتلاك ما يسمونه مستعمرات ودولاً غير مستقلة ، واستغلالها بأوسع ما تحتمل هذه الكلمة من معانٍ على حساب السكان المحرومين ابتغاء زيادة ارتباكهم وإفقاء سخطهم .

والحق أنه لا يمكن أن نجد دليلاً على النتائج المفجعة المروعة للاستعمار أجلى وأوضح من الحقيقة الماثلة وهي أن الحروب أصبحت أمراً عالميًّا عقب انتشار مبدأ الاستعمار الجديد والدعوة له في جميع ربوع العالم .

فالاستعمار الحديث كان يتطلع إليه بشوق أفراد وأمم ، وعُدَّ الطريق السامي الذي يفضي الى الثروة والثراء والسلطة . وتبارت الشعوب للظفر به وتزاحم بعضها مع البعض الآخر لتحقيقه ، وأشربت نفوسها بالحقد بسببه دون نظر إلى حقيقة ماثلة هي أن بعض روّاد الاستعمار سقطوا ضحايا فكرته ، ولنذكر على سبيل المثال ما حلّ بالأسبانيين

والبرتغاليين والفرنسيين . والحق أنه تستمد دروس غير قليلة من المصير المروع الذي آل إليه دعاة الاستعمار وأبطاله المحدثون .

وقد قال رئيس الوزارة الإيطالية الأسبق « نيتي » في كتابه « أوربا بلا سلام » وقد نشره عقب الحرب العالمية الثانية إنّ الحروب الإيطالية في ليبيا كان ممناها انفاق أربعة عشر ألف مليون ليرة لشراء حفنة ملؤها رمل . فإلى أي ارتفاع باهظ بلغ هذا الثمن بعدما أنفقته إيطاليا الفاشية في ليبيا وإثيوبيا وسواهما من المناطق . والواقع أن إيطاليا أدمت نفسها في المال وفي الرجال ، وعرّضت كيانها نفسه إلى الانهيار بسعيها لتحقيق مشروعاتها الاستعمارية ، ولم تجن سوى الدمار والخراب .

سراب

وستدرك جميع الأمم ، آجلاً أو عاجلاً ، بعد هذه الحروب الطاحنة التي سدّدت ضربات قاصمة إلى حضارة اليوم المادّية ، إن الاستعمار سراب . فهي تسعى إليه مجنون ، وتتحارب فيما بينها ولكنها عندما تظفر بهدف معين تجد أن الاستعمار ليس سوى بديل سيء للعمل الشريف والجهد المقترن بالإخلاص ، وحياة الثقة والأمل والمحبّة . إنه في الواقع كحجر تقذف في اتجاه صخرة . قد تصدم الصخرة ، وقد تترك بها أثراً ، بيد أن هناك احتمالات بأن ترتدّ القذيفة وتقتل راميها !

ومن الحقائق المسلّم بها أنّ الاستعمار — بوصفه استغلالاً للضعيف من جانب القوي — كان السبب الرئيسي لمعظم الحروب في السنوات المئتين الأخيرة . ويمكن تتبع آثار الاستعمار في جميع تلك الحروب . ومن شأن البحث الدقيق أن يبين أن آثار الاستعمار الشريرة تكمن في مكان ما من التراث الأدبي للدولة المقهورة متخذة شكل صنم من الأصنام الحديثة وهي : الزيت والذهب والقمح والقطن أو أي إنتاج آخر من غلات الأرض الكثيرة .

والواقع أن الاستعمار في شكله الحديث شرّ وبيل لكل من المقهور ، والمستعمِر والمستعمَر على السواء . فهو يسوق الدول الظافرة بالتدريج إلى حياة عدم المبالاة والإهمال والتهاون مع ما يصحب ذلك من شرّ مستطير لا مهرب منه وهو الانغماس الذاتي المهلك . ويلي ذلك حروب قاتلة مع نواحي الدولة المستعمرة ويصبح بقاؤها بأسره معرضاً للتدهور والانحلال

وما فتئنا حتى اليوم نستطيع أن نرصد في الذرية آثار الشرور التي حلّت بأمم الماضي الاستعمارية المتصفة بالعسف

وإن استبقاء المستعمرات والدول غير المستقلة واستخدامها كمجال للإستغلال الاقتصادي والسيطرة السياسية لا يسعه إلاّ أن يخفض مستوى المعيشة في تلك المناطق . وبهذا تحدد مقدرتها كدول مستهلكة ودع عنك آثار الإستغلال العكسية في الهمّة والنشاط وقوى الإنتاج . ومثل هذه الأحوال المقبضة لا يسعها إلاّ أن تفضي إلى النزول بجانب كبير من سكّان الكون إلى مستوى مقبضٍ من المعيشة يجعل من هؤلاء عبئاً على الإنسانية . واذا أضفنا الى هذا المكائد والدسائس والحروب وسواها من الشرور التي ينشئها الطموح الوحشيّ ، رأينا أنّ صداها هو التعجيل بقيادة المدنية إلى وهدة الدمار والبلى .

حقائق جلية جلاء ذاتيًّا

ألم يكن الغلّ والغيرة والسباق للاستيلاء على ممتلكات الشعوب المقهورة سبب الحروب النبوليونية بجميع نكباتها وماسيها التي جلبتها على أمم وأسر فرنسا نفسها، فضلاً عن العالم بأسره ؟ أولا ينطبق عين هذا على الغزوات التركية والروسية والنمسوية ؟ ألم يكن هذا فأن الحرب الروسية اليابانية التي اندلع ضرامها في مستهل القرن الحالي ؟ لاريب في أن الحرب الأخيرة ما كان يمكن أن تقع بسبب الشقة الفسيحة التي تفصل بين الدولتين ، لو لم يُفضِ توسعها الاستعماري إلى تصادمهما في سبيل استغلال موارد الدول الصغيرة .

وهل يسع فرداً أن ينكر الحقيقة الجلية جلاءً ذاتيًّا وهي ان الغلّ والغيرة المضرمتين في صدور تلك الدول التي لم تظفر بنصيب من الأسلاب ، وان الشرهَ والشهوة النهيمة لتوسع علاوة على الظفر بالمواد الخام وأراضي الأمم المغلوبة على أمرها ، كانت الأسباب الرئيسية لكل من الحربين العالميتين الأولى والثانية ؟

أولم يكن إدراك الدول العظمى لشرور الاستعمار هو الذي دفعها بعد الحرب العظمى الأولى إلى البحث عن مخرج بمشروعات الانتدابات والتجريد من السلاح وحرية اقتناء الخامة ؟

لا ريب في أن هذا الطابع الحديث من الاستعمار والاستغلال — الذي يختلف عن الطوابع القديمة التي كانت الشعوب المقهورة بمقتضاها تدترك في الحقوق المدنية عن قدم المساواة مع قاهريها في دولة واحدة ذات ادارة واحدة للجميع — هو أمنُ قلاقل العالم واضطراباته .

وسيظل هذا الإثم الحديث ماثلاً دون سلام العالم إلى أن ينكشف لجميع الأمم، قويها وضعيفها على السواء، من اختباراتها وتضحياتها، حلٌّ عُرض للجميع وتعاون عالمي في هيئة دولية لإدارة هؤون العالم العامة لمصلحة الانسانية جمعاء على قاعدة تساوي حقوق الأفراد والأمم.

التضحية هي العلاج الوحيد

كانت الحروب التقليدية مقتصرةً عادةً على الجيران المتناحين أو على دولتين متحاربتين. ولكن لما أضحى شرّ الاستعمار كونيًّا، جارته الحروب في ذلك. لذلك تحتم وضع مبادىء كونية لتسوية مشكلات العالم ومنازعاته.

والحل الوحيد لإنقاذ المدنية من أسقامها الحالية هو التضحية بالاستعمار.

وإن مساعي بعض الدول العظيمة في هذا الاتجاه سواء في أعقاب الحرب العالمية الأولى لما وضع الرئيس ولسن مبادئه، أو في أثناء الحرب العالمية الثانية كما تجلى في ميثاق الاطلنطي أو ميثاق هيئة الأمم المتحدة — لتُعَدُّ دليلاً على الادراك العام للإثم الذي جلبه الاستعمار على العالم ولنتائجه العكسية على الظافرين والمغلوبين على حدٍّ سواء.

وفي ما خلا الأسباب التي تجعل من الاستعمار كارثة على الدول المذعورة — لأنها تُكره على النزول عن مستواها وتحرم من الطمأنة والقدرة على الانتاج — فهو يلزم مئات من ملايين الجنس البشري بأن يفقدوا نصيبهم في تهيئة مدنية عامة.

فكيف يتسنّى للعالم إذن أن يستقر ما دام أولئك المئات من الملايين قد أصبحوا — من حيث طريقة تفكيرهم وعملهم — عبئاً على سائر البشر؟ لا ريب في أن الاستعمار شر شامل وإذا كان مصير الأمم بعد هاتين الحربين العظيمتين سيظل خاضعاً لقانون القوة، فستتكرر المأساة مرة تلو مرة حتى تفنى المدنية — حسبما ندركها — في النهاية.

التعاليم الاسلامية الدولية

والتقاليد العربية المستمدّة من تعاليم الاسلام تستنكر الاستعمار. فالقرآن يحرم تحريماً تامًّا استغلال الآخرين باستخدام القوة للظفر بمغانم أرضية. وتقتضي هذه التعاليم نبذ جميع الحروب المدفوعة بمشروعات استعمارية ابتغاء التوسّع، وبعد الاستئثار بالغنائم واحتكار الأسواق، والزعم بتحضير السائمة أو احتلال مواقع استراتيجية، أموراً غير

شرعية . ولا تسمح تلك التعاليم بدعوى تعالي دولة على دولة أخرى أو تعاظم جنس على جنس آخر ما دام المقصود بذلك إيجاد جامعة عالمية والتمييز بين بني البشر .

وتؤكد تلك التعاليم تساوي بني الانسانية وتحظر التفضيل والتمييز بينهم الا بالتقوى والطهر والمحبة والمسالمة . وهي تنكر الحرب والنزاع الا في حالة الدفاع عن النفس أو لتحقيق حرية الاعتقاد لجميع الأديان . وهي تحكم على كل دافع آخر للحرب بأنه غير جائز .

* * *

وقد يحاج البعض بأن التاريخ العربي سجل حوادث تناقض هذه المبادىء . وهذا صحيح لأن بعض زعماء العرب وملوكهم لم يوفر مبادىء دينه . غير أن هؤلاء القادة دفعوا ثمن اتقاعهم لهذه المبادىء إما بأشخاصهم أو بشعوبهم في ما بعد .

وجلي من جميع سور القرآن وحديث النبي أن الاسلام يتبرأ من الاستعمار بجميع صوره وأهدافه . والواقع أنه ليس هناك حجة على صدق تلك التعاليم وبعد نظرها أقوى مما تجلى من دمار انشأته مبادىء الاستعمار الحديثة في حياة جيل واحد ، وما تلاه من جعل الاحرام أمراً قانونياً مشروعاً .

وإني لأضرع من كل قلبي وآمل بإيمان وثيق أن يدرك الساسة الذين يقررون مصير الأمم أن الأوان آن لاستخدام تلك التعاليم الاسلامية النبيلة والتقاليد العربية السامية في انشاء علاقات دولية متينة في اتجاهات تختلف عن تلك التي تملها سياسة القوة وقانون الغابة مع التثبت من أن تلك العلاقات تنهض على روح المسالمة والمودة والاخاء التي يوحي بها الاسلام ، ذلك الدين الذي لا يعرف تفرقة بين لون أو معتنق ولا تمييزاً بين المعارف والجهالة ، والتقدم والتأخر ، وإنما يعترف بشيء واحد وحقيقة واحدة هي أن جميع الناس إخوة منحدرون من أب واحد هو آدم .

وإن من الواجب الديني على جميع المسلمين أن يستنكروا الاستعمار ، وهذه تبعة عظيمة شريفة وعلى كل عربي مؤمن ومتصف بالرجولة أن يعارض الاستعمار

ولن يشرق فجر يوم جديد يكتنفه السلم والأمل على هذه الدنيا المعذبة إلا عند ما يدرك كل واحد منا — ظافراً ومدحوراً على السواء — أن الاستعمار حائل دون استقرار العالم وسلامه .

ترجمها عن الانجليزية ربيع فلسطين